

تاريخ الإرسال: 2014/04/01 - تاريخ القبول للنشر: 2014/04/30 تاريخ النشر: 2014/07/06

منطقة الجلفة في مجلة الشرق (Revue de l'orient).

عبد الفتاح بن جدو

أستاذ مساعد. قسم العلوم الإنسانية. جامعة الجلفة

المختصرات : (مجلة الشرق) R.O : revue de l'orient

نهدف من خلال هذه السطور إلى إلقاء نظرة على بعض ما كتبه الفرنسيون في مجلة الشرق حول منطقة الجلفة ، سواء من حيث وصف المنطقة ، أو الحديث عن سكانها ، أو بعض الأحداث التاريخية الهامة التي جرت هناك ، وارتأينا أن نبدأ الحديث أولا بالتعريف بهذه المجلة وبالهئية التي كانت تصدر عنها .

ومجلة الشرق هي مجلة علمية متنوعة المواضيع والاهتمامات كانت تصدر شهريا عن الجمعية الشرقية (la société orientale) بفرنسا ، وقد صدر العدد الأول منها سنة 1843 ، وظلت تصدر إلى غاية سنة 1865 ، أما عن الجمعية فقد تأسست سنة 1841 بباريس واعتمدت رسميا من طرف الحكومة في السنة الموالية 1842 ، وعن أهداف هذه الجمعية يقول السيد إيقو (A.Hugo) نائب رئيس الجمعية أنها دراسة الأوضاع الراهنة والدراسات الاستشرافية أيضا ، ومحاولة إبراز كل خصائص ومقومات دول الشرق التي يمكن أن تستخدم لخدمة الحضارة الإنسانية بصفة عامة وخدمة المصالح الفرنسية على وجه الخصوص ، وفي هذا المسعى يجب استكشاف الشرق للدفاع عن مصالح الفرنسيين والمسيحيين ، وحيث أن روسيا قد حملت شعار الكنيسة الأرثوذكسية ، كما حملت إنجلترا شعار الكنيسة البروتستانتية ، فإن الواجب الديني يحتم على فرنسا رفع راية الكنيسة الكاثوليكية والدفاع عن حقوق الكاثوليك في الشرق وهذا ما تسعى إليه الجمعية¹.

أما عن مجالات الدراسة فيقول إيقو أنها تشمل دراسات التاريخ ، الجغرافيا ، العادات والتقاليد ، الأعراق البشرية ، الديانات والدراسات القانونية بالإضافة إلى مجالات الصناعة والتجارة².

ورغم ما تضمنته هذه المجلة من معلومات قيمة عن منطقة الجلفة إلا أنها لا تزال شبه مجهولة عند الباحثين على عكس المجلة الإفريقية مثلا التي أخذت حظا وافرا من الدراسة والبحث ، لذلك أجدني أمام التزام علمي هو التعريف بهذه المجلة ، وقد حوت بعض أعداد هذه المجلة معلومات قيمة عن منطقة الجلفة في منتصف القرن 19 (1845 - 1860) ولنبدأ بالعدد السادس من سنة 1845 الذي نشر فيه موضوع بعنوان " قصور الصحراء " (*les ksars du sahara*) وهو مستخرج من تقرير أعده الجنيرال ماري مونج (Marey Monge) عن حملة قامت بها القوات الفرنسية تحت قيادته إلى الصحراء سنة 1844 وانتهت فيها إلى الأغواط والقصور القريبة منها ، ويقول ماري عن دوافع هاته الحملة بأن السيد يحيى بن سالم وهو أخو قايد الأغواط قد تقدم للفرنسيين بمقترح مثيرا جدا للاهتمام يتعلق بتعيين أخيه أحمد بن سالم خليفة على منطقة الأغواط والقصور الخمسة المجاورة لها والتي تضم كلا من عروش (لرباع ، الحرازيلى وحتى بني مزاب) وقد وجد ماري في هذا المقترح فرصة سانحة لبسط نفوذ الفرنسيين على الصحراء الصغرى ، فأرسل السيد يحيى إلى العاصمة لعرض هذا المقترح على الحاكم العام الذي وافق عليه وراسل الجنيرال ماري للبدء بتنفيذ هذا المخطط يوم 12 أفريل ، وعن تجهيزات الحملة يذكر أنها كانت مشكلة من 2700 جندي و 1700 دابة تحمل مؤنا كافية لمدة 21 يوم فضلا عن مؤنة 6 أيام على الحقائق ، 72 ألف خرطوشة فضلا عن 60 خرطوشة بكل سلاح وتفاصيل أخرى كثيرة ، وقد انتهت هذه الحملة في أقصى حدودها جنوبا إلى مسافة 45 كم جنوب الأغواط ، ويعلق ماري على ذلك بأن الأتراك لم يصلوا إلى هاته المناطق كما لم يصل إليها الأمير عبد القادر مما يدل على عظمة وقوة الفرنسيين ، لكن الحملة لم تتخذ المسار الرئيسي بل اتجهت غربا انطلاقا من بوغار إلى طاقين ثم الزينة وجبال عمور لتتجه شرقا من جديد ، بمعنى أن هذه الحملة قد تفادت المرور عبر أراضي أولاد نايل ، وهذا بالتأكيد خوفا من ردة فعل سكان منطقة الجلفة ، وسنورد بعد قليل ما يؤكد هذا الكلام ، ووفقا لماري فقد نجحت هذه الحملة في تخويف كل المناطق الجنوبية ودفعها للخضوع للفرنسيين ونقصد بها كلا من : جبل عمور ، تاجموت ، عين ماضي ، عويطة ، الأغواط ، العسافية وقصر الحيران ، أما عن أراضي أولاد نايل فيقول ماري بأنه عندما اقترب بقواته من مسعد ودمد راسله سكانها بكتب الاستسلام كما راسله آغا أولاد نايل بكتاب الاستسلام أيضا ، ورغم ذلك فقد خشي ماري العودة عن طريق أراضي أولاد نايل وفضل العودة عبر طريقه الذي جاء منه لأن قبائل أولاد نايل لازالت على حد قوله غير مطمئنة للفرنسيين ، فعاد على الطريق الغربي ومر بمقطع سيدي بوزيد ثم على مشارف قصر زينة حيث راسلها قائدها بأن الأوضاع هادئة هناك والناس مسالمون³ .

وفي التقرير وصف لبعض مناطق الجلفة لأن الحملة لم تمر بكل المناطق ، ومن هذه المناطق جبل الصحاري ، زاغز الغربي ، حجر الملح ، ويتعلق هذا الوصف بالمناخ ، التضاريس ، الغطاء النباتي والثروة الحيوانية .

وفي العدد التاسع لسنة 1851 نجد خبرا عن ثورة الشريف بوبغلة تنشره المجلة نقلا عن جريدة المبحر الصادرة بتاريخ 10 جوان 1851 وتقول فيه أن الجينيرال لادميرول (Ladmirault) تقدم يوم 08 جوان بجزء كبير من قواته إلى الجلفة ووصل إلى منطقة الحمام حيث كانت الأشغال جارية لبناء دار القيادة ، وتضيف بأن الجينيرال كان مسرورا جدا لأن أولاد نايل لم يتجاوبوا مع رسل بوبغلة ولم ينضموا لثورته⁴ .

وفي العدد الرابع عشر من سنة 1853 نشر الكونت دو سانفيتال (de Sanvitale) مقالا بعنوان " المياه المعدنية بالبرواقية " (les eaux thermales de Berrouaghia) ، ورغم أن العنوان لا يوحي بوجود علاقة بينه وبين الجلفة إلا أن المقال تضمن في البداية كلاما هاما عن حملة الجينيرال يوسف للقضاء على ثورة الشريف ورقلة سي محمد بن عبد الله ، والتي اتخذ فيها من مدينة الجلفة قاعدة الانطلاق ، كما أنه استعان بإبل أولاد نايل لحمل السلاح والمؤن ، وكيف استطاعت قوات الفرنسيين الإغارة على قوات الشريف بشكل مباغت بالقرب من منطقة العسافية وشتت جموعه كما تمكن الفرنسيون من جمع غنائم كبيرة قدرت ب 2000 رأس إبل و 20000 رأس غنم بيعت كلها لأولاد نايل واستغلت أموالها في إنجاز الطريق الرابط بين بوغار و الجلفة⁵ .

وعن سكان المنطقة نشر أيضا الكونت سانفيتال مقالا بعنوان " قبائل الصحراء الجزائرية - أولاد نايل الغرب - " في العدد الخامس عشر من سنة 1854 ، ويتحدث الكاتب أولا على أن قبائل أولاد نايل تنقسم من حيث المواطن إلى قسمين : أولاد نايل الشراقي وهم المنتشرون بكل من بوسعادة وأولاد جلال ، وأولاد نايل (الغرابي) وهم التابعون لمقاطعة المدية بمعنى منطقة الجلفة ، وهم المعنيون بهذا المقال .

يتكون المقال من 09 صفحات وهو مقسم إلى خمسة محاور : الأصول : المواطن ، العادات والتقاليد ، الأنشطة الاقتصادية والتنظيمات الداخلية والخارجية ، فالنسبة للأصول يقول بأن صفة أولاد نايل تطلق على كل القبائل المنحدرة من صلب نايل بن صباح الذي ينتهي إلى النسب الحمدي فهو الشريف ، وقد قدم وفقا للروايات المحلية من الساقية الحمراء ، لكن سانفيتال يعلق على هذه المعلومة ويقول بأنه لم يطلع على شجرة نسب أولاد نايل كما أنه لم يطلع على دليل

مادي يثبت صحة هذا الكلام ، كما يذكر أيضا أن ابن خلدون يقول بأن نايل بن عامر بن جابر ينحدر من بني سليم وهي قبيلة يمنية مضرية كبيرة⁶ * .

وقد حدد الكاتب أهم العروش المنضوية تحت راية أولاد نايل وهي⁷ :

- 1 - أولاد ضيا بن محمد بن مليك بن نايل في الشمال .
- 2 - أولاد سي محمد بن نايل في الغرب .
- 3 - أولاد عامر بن سعد بن سالم بن نايل في الشرق .
- 4 - أولاد فرج بن عيسى بن نايل في الشرق .
- 5 - أولاد سعد بن سالم بن نايل في الجنوب الغربي .
- 6 - أولاد عيسى بن سالم بن نايل في الجنوب الشرقي .

وهناك قبائل أخرى أيضا تعيش بالمنطقة من غير أولاد نايل⁸ بأعداد كبيرة أيضا ، أما عن المواطن فيقول الكاتب بأن أراضي أولاد نايل (الغرابي) تمتد من جبل الصحاري (الظهراوي) شمالا إلى وادي جدي جنوبا ويحدها من الغرب أراضي أولاد شعيب والعجالات ، أما شرقا فمنطقة بوسعادة .

ويقول الكاتب بأن أولاد نايل يفتخرون كثيرا بأصالة نسبهم ، أما عن صفاتهم فيقول أن بشرتهم بيضاء بها لمحة سمرة بتأثير الحياة البدوية ، أما عن طبائعهم وعاداتهم فيقول بأنها نفس عادات البدور التي بينها دوما في كتابه عن الصحراء ، كما أن أولاد نايل أثرياء ، ومصدر ثروتهم هو تربية المواشي والأنعام فضلا عن بعض الأنشطة الزراعية ومن يمارسون الزراعة يكونون مستقرين سواء تحت الخيام أو في بعض القصور ، كما أن منهم التجار الذي يقودون قوافل إلى تقرت ، تماسين وبني مزاب⁹ .

وعن التنظيمات الداخلية والخارجية يذكر الكاتب أيضا أن أولاد نايل يملكون قوة كبيرة جدا لو كانوا متحدين لكن المشكل أنهم دائما متفرقون ومتناحرون فيما بينهم ، كما أنهم كانوا دائما في حروب دائمة سواء مع القبائل المجاورة لهم على غرار لرباع ويذكر أمثلة جيدة عن ذلك ، أو متمردين على حكم البايك ، ولم تنضو بعض قبائل أولاد نايل في دعوة الأمير عبد القادر إلا بعد بسط نفوذه على الأغواط ، وكانوا آنذاك تحت قيادة سي الحاج عيسى ثم عبد الباقي ، ثم عين عبد القادر سي شريف بلحشر من أولاد الاغويني خليفة له¹⁰ .

وعن وصف المنطقة ومنشأتها كتب السيد فلوريان فرعون Florain-Pharaon وهو مترجم عسكري رسالة إلى السيد ألكسندر أوتن بعنوان من الجزائر إلى الأغواط مؤلفة من جزأين يهمننا الثاني منهما وهو الذي يبدأ بعين وسارة وهو مؤلف من 13 صفحة نشر في عدد جانفي لسنة 1855 ، ويبدأ بالحديث عن عين وسارة التي يقدم تفسيراً لاسمها الذي يعني الأرض المرتفعة ويقول بأنها تضم ملتقى قوافل بناه الفرنسيون وهو من أجملها وبالمناطقة تنزل عروش رحمان ، المويعادات الغرابي وأولاد مختار ، ثم يقول بأن الكل هنا أغنياء ولا وجود للفقير بينهم وأن الناس لا يفكرون في الرزق نظراً للتكافل الاجتماعي بينهم ، يتكلم أيضاً عن قطعان الغزلان الكبيرة وكيفية صيدها ، كما يتكلم عن الرياح الساخنة وكيف أنها لا تطاق ، وكيف أن الناس يؤمنون بالخرافات كثيراً (قصة الحمارة السوداء وغسلها بالماء لينزل الشهيبي) ، أما المنطقة الممتدة بين عين وسارة وقلت سطل فإنها مليئة بالحلفاء التي قد يتجاوز طولها المتر ، وهنا توجد أعداد لا متناهية من الأرناب البرية ، ويتكلم أيضاً في هذا الصدد عن حملة الجنرال يوسف عام 1852 وكيف قطع مع قواته هذه الأراضي واشتغل جنوده بصيد الأرناب هنا ، ونشاهد أيضاً قطعاناً من الغزلان من 150 إلى 200 رأس والنعام بين الحين والآخر ، ثم يصل ملتقى القوافل بقلت سطل والذي يصفه برداء البناء ، كما يتكلم عن المنشآت المائية التي بناها الفرنسيون هناك من سدود وقنوات توصيل والتي لاتزال قائمة إلى الآن ، ثم يصل إلى المصران ويقدم تفسيراً للتسمية فيقول بأن الأمطار عندما تهطل هناك تحدث مجار سطحية على شكل الأمعاء ومنها اشتق الاسم مكانه ، ثم يصل إلى حجر الملح ويصف كيف أن أولاد نايل ، الصحاري وأولاد عيسى يتزودون منه بالملح ، ثم يصل إلى الجلفة ويتكلم عن دار القيادة التي بناها يوسف لتأمين المنطقة في ظرف 3 أشهر فقط ، والتي بنيت في الأصل لإقامة الخليفة شريف بلحشر لكن بعد احتلال الأغواط تغير المخطط وبنيت للخليفة دار أخرى بمدخل المدينة بناحية البرج ، ثم يصل إلى آخر محطاته بالجلفة عين الابل التي يسكنها أولاد طعبة على حد قوله والتي يقول عن ملتقى القوافل بها أنه الأجود من حيث البناء من بين البقية¹¹ .

أما في عدد جانفي 1860 فقد نشرت المجلة مرسوماً إمبراطورياً يقضي بترقية كنيسة الجلفة إلى رتبة أعلى (succursale)¹² .

وعموماً فقد تضمنت هذه المجلة معلومات لا بأس بها عن منطقة الجلفة سواء تاريخية ، جغرافية ، أو إثنولوجية وأنثروبولوجية ، يمكن أن تشكل مصدراً ومورداً هاماً للباحث في تاريخ المنطقة أو حتى في اختصاصات أخرى ، وللأسف لا

نجد اهتماما بهذه المجلة القيمة ، لذلك نرجو أن تساهم هاته السطور المتواضعة في إمطة الشام عن هذه المجلة وتوجيه الباحثين إليها .

الإحالات والهوامش:

- 1- A.Hugo , "**but de la société orientale**" , Revue de l'orient , Tome 01 , librairie de la société orientale , Paris , 1843 , p 01 du prologue .
- 2- -2Ibid
- 3- Marey Monge , "**les ksars du Sahara (extrait du rapport d'un général Marey sous le titre : expédition de Laghouat)**" , R.O , tome 06 , 1845 , pp 33-39 .
- 4- R.O , tome 09 , 1851 , p 336 .
- 5- De Sanvitale , "**les eaux thermales de Berrouaghia**" , R.O , tome 14 , 1853 , pp 225 - 227 .
- 6- De Sanvitale , "**tribus du sahara algérien les - Ouled-Nayls de l'ouest**" , R.O , tome 15 , 1854 , p 201 .
 * أخطأ الكاتب هنا حين نسب أولاد نايل إلى نائل بن عامر بن جابر الذي جعله ابن خلدون من سليم ، لأن هؤلاء استقروا بليبيا ما بين برقة وطرابلس ، والأقرب للصواب أنه نائل الهلالي الذي نسبته ابن خلدون إلى فرغ بن خميس من عروة بن زغبة إحدى بطون بني هلال بن عامر ، لأن هؤلاء استقروا بالمناطق القريبة والمجاورة لمنطقة الجلفة . أنظر ابن خلدون ، **تاريخ ابن خلدون** ، ج 6 ، دار الفكر ، بيروت-لبنان ، 2000 ، ص 75 ، 111 . وأما مسألة انتساب أولاد نائل لآل البيت فيبقى رأياً تنقصه الإثباتات والأدلة المادية كما ذكر سانفيتال خاصة وأن ادعاء النسب الشريف كان أمراً رائجاً ومعروفاً في بلاد المغرب كلها .
- 7- De Sanvitale , op.cit , p 202 .
- 8- نذكر من هاته القبائل على سبيل المثال : الصحاري ، العبايزر ، أولاد بن علي ، الأحداب ، رحمان
- 9- De Sanvitale , op.cit , p 203 , 204 .
- 10- Ibid , p 205 .
- 11- Florian Pharaon , "**d'Alger à Lar'ouat**" , R.O , tome 01 , 1855 , pp 302-308 .
- 12- R.O , tome 01 , 1860 , p 287 .